السلسلة الثقافية

عبد السلام هارون

التراث العربي





التراث العربي

التراث العربي

عبد السلام هارون



المركز العربي
للثقافة والعلوم

طباعة . نشر . توزيع

ص. ب: ٥٧٣٩ ـ ١٣ بيروت ـ لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

التراث

لا نجد للتراث مادة معيَّنة في معاجم اللغة كبيرها وصغيرها ، فليس في اللغة العربية من المواد المبدوءة بالتاء والمختومة بالثاء إلا ثلاث مواد:

١ ـ الأولى : مادة (تفث). ومما ورد فيها ما جاء في القرمنٍ الكريم: «ثم ليقضوا تفثهم». وقضاء التفث: إذهاب الشعث والدرن ، وهو ما يفعله المحـرمِ إذا أحلّ : كقص الشعر ، وتقليم الأظفار .

٢ ـ الثانية : مادة (تلث): فيها التَّليث بوزن فعيل، وهو ضرب من نجيل السِّباخ.

٣ ـ الثالثة: مادة (توث)، وقد ورد فيها التُّوث: وهو لغة ضعيفة في التوت ؛ كما ذكر بعض اللغويين .

إذن من أين جاءت كلمة «التراث»؟

إنَّها مأخوذة من مادة (ورث) التي تدور معـانيها حول حصول المتأخر على نصيب مادّي أو معنوّي ممن سبقه : من والد أو قريب أو مُوصٍ أو نحو ذلك. وفي الكتاب العزيز: «وورث سليمان داود».

وأجمع اللغويون على أن التراث ما يخلّفه الرجـل لورثته ، وأن تاءه أصلها الواو: أي (الوُراث). ولـه نظائر في كلمات أخرى منها : التُّجاه ، أصلها الوُجاه : أي الجهة.

ومنها : التُّخمة : الأزمة الناشئة عن ثقل الطعام . (الوُخَمة).

ومنها: التُّهَمة: وهو توهّم الإنسان أن أخاه قـد أساء أو تجاوز حداً من الحدود، وأصلها (الوُهَمة).

وكـذلـك: التُّكلان ، أصلهـا (الـوُكْـلان): أي الاعتمـاد على وكيـل. وتَتْرى ، أصلهـا (وَتْـرَى) من المواترة.

ومن هذه النظائر أيضاً : التُّقى، أصلها (الوُقى).

وهكذا يدور قلب الواو المتصدرة لهـذه الكلمات

تاء، لأنها أجلد من الواو وأقوى، ولا تتغير بتغيُّر أحوال ما قبلها كما يقولون .

تاريخ الكلمة :

لعل من أقدم النصوص التي وردت فيها هذه الكلمة ما جاء في القرآن الكريم من سورة الفجر: ﴿ وتأكلون التراث أكلاً لماً ﴾: كانوا في جاهليتهم يمنعون توريث النساء وصغار الأولاد، فيأكلون نصيبهم ويقولون: لايأكل الميراث إلا من يقاتل، ويحمي حوزة القوم، وكانوا يلمّون جميع ما تركه الميث من حلال أو حرام ويسرفون في إنفاقه.

ومما ورد في الشعر القديم قول سعد بن ناشب، وهو شاعر إسلامي كان بلال بن أبي بردة قد هدم داره، لأنه أصاب دماً في قوم:

فإن تَهدموا بالغدر داري فإنها
تراثُ كريمٍ لا يُبالي العواقبا !

وظلت كلمة « التراث » محدودة الاستعمال تنوب عنها أختها « الميراث » في كثير من الأمر الى أن أطلّ علينا هذا العصر الحديث، فوجدنا هذه الكلمة تشيع بشيوع البحث عن الماضي: ماضي التاريخ، وماضي الحضارة، والفن والآداب، والعلم، والقصص، وكل ما يمت الى القديم.

المعنى المعاصر:

والذي يعنينا في هذا الذي قصدنا له هو التراث الفكري المتمثل في الآثار المكتوبة الموروثة التي حفظها التاريخ كاملة أو مبتورة، فوصلت إلينا بأشخاصها.

وليست هناك حدود معينة لتاريخ أي تراث كان، فكل ما خلفه مؤلف من إنتاج فكري بعد حياته طالت تلك الحياة، أو قصرت ـ يعد تراثاً فكرياً.

ولقد أصبح شعر البارودي وشوقي وحافظ، وحديث عيسى بن هشام، وآثار المنفلوطي والمازني والعقاد ـ تراثاً له حرمته التاريخية، وله مقداره الأثري.

التراث العربي

والتراث العربي يتناول كلِ ما كتب باللغة العربية، وانتزع من روحها وتيارها قدراً بصرف النظر عن جنس كاتبه، أو دينه، أو مذهبه، فإن الاسلام قد جَبَّ هذا التقسيم وقطعه في جميع الشعوب القديمة التي فتحها، وأشاع الاسلام لغة الدين فيها، وهي اللغة العربية التي لوّنت تلك الشعوب بلون فكري واحد متعدد الأطياف، هو الفكر الاسلامي، وهو الفكر العربي.

تقويم التراث العربي:

ولعل من نافلة القول والتزيد فيه أن نسهب في بيان قيمة هذا التراث، فلقد سبقنا العلماء الأوربيون الى الاعتراف بهذا الفضل، واستولى عليهم الدهش إزاء ظهورهم على ماصنع أسلافنا في مختلف زوايا العلم والمعرفة، فالتراث العربي غني في الكيفية، غني في

الكمية أيضاً، ولاتزال آثار هؤلاء الأسلاف ـ في التشريع والعلوم الفلسفية والرياضية والجغرافية والطبية والفنية وغيرها ـ معدودة في قمة الانتاج الفكري، ولا تزال النظريات الفلسفية والاجتماعية لعلماء العرب وفلاسفتهم أصلاً وجذراً من جذور علم الاجتماع والفلسفة المعاصرة..

وأذكر أنني كنت في مجلس ضم طائفة من المشتغلين بالفلسفة فانبرى أحد الأساتذة ليقول: إن أحدث البحوث الفلسفية الآن أصبح يستخدم الرموز الحرفية في حل مشاكل الفلسفة، وإن مسائل الفلسفة الآن أضحت شبيهة بمسائل الجبر والمعادلات الرياضية! فقلت له: إن أسلافنا العرب قد سبقوا فلاسفتنا المعاصرين في هذا الاتجاه الذي نوهت به.

وذكرت له أني قمت بنشر رسالة للرئيس ابن سينا عنوانها «الرسالة النوروزية» تكلم ابن سينا فيها على فلسفة الوجود مستخدماً حروف الهجاء: (ابجد هـ و ز ح ط ي ك ل م ن س ع ف ص ق ر) في معادلات رياضية ينتهي بكل منها الى أحكام فلسفية خاصة. وهذه الرسالة ضمن سلسلة نوادر المخطوطات التي

قمت بنشرها سنة ١٩٥٤. فأخذت الدهشة صاحبي من السبق الفني العجيب لأسلافنا العرب:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم
إذا جمعتنا يا جرير المجامع!

وإن في التراث العربي كثيراً من المعجزات الفريدة التي لم تتكرر في عالم التأليف الى الآن.

فكتاب « مقاييس اللغة » لأبن فارس يعد فريداً في بابه، إذ إن ابن فارس استطاع أن يبتدع نظرية لغوية دقيقة تتمثل في إرجاع كل مادة لغوية من مواد المعاجم الى أصل أو أصلين أو عدة أصول معنوية. وقد يكون في المادة الواحدة مئات من الكلمات، مثل (ربع)، وتفسر كل كلمة منها بتفسير خاص يخاله القارىء المطلع أشتاتاً مختلفة، ولكن ابن فارس استطاع بحذقه أن يردّها الى ثلاثة أصول، وهي: الجزء من أربعة أشياء، والأقامة، والاشالة والرفع. على حين نجد ابن منظور في لسان العرب يتناول مفردات هذه المادة ومشتقاتها في خمس عشرة صفحة كبيرة، يخيل للباحث فيها أن هناك مئات من الدلالات لمئات من الألفاظ.

وقد قام ابن فارس بتطبيق تلك الفكرة على جمهور المواد اللغوية العربية، فاستقام له ذلك. ولم نسمع الى الآن بمن قام بمثل هذا المجهود التأليفي في أي لغة من لغات العالم كانت، في قديمها وفي الحديث.

كما تعدّ «مقدمة ابن خلدون» لكتابه في التاريخ كنزاً من كنوز التفكير الاجتماعي سيظل أصلاً للفلسفة الاجتماعية، وسيظل مرجعاً للدارسين مهما طالت الأزمان وكرت الدهور.

وكذلك المجهود الفريد الذي قام به الزمخشري في معجمه «أساس البلاغة» الذي استطاع فيه أن يفرد الألفاظ والأساليب المجازية، وينظر اليها بعين مبصرة. ولقد حالفه التوفيق، واستتب له النجاح في جميع خطواته.

ونستطيع أيضاً أن نعد تراث أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في قمة التأليف في المعارف العامة، أو أن نقول: هو الذي فتح الباب لمن جاء من بعده من العرب وغيرهم حتى أمكن المؤلفين في عصورنا الحديثة أن يؤلفوا ما يسمى بدائرة المعارف: Encyclopedia

ويستطيع الأديب العربي أن كتفي بقراءة كتبه ليحصل على اللبنات القوية التي تشيد له صرحاً فكرياً وبيانياً عالياً، وتمنحه قوة واقتداراً على البيان والنقد والتصرف في فنون القول.

فنون التأليف العربي :

ويكفي أن تقلب طرفك في أثناء كتاب «كشف الظنون» لحاجى خليفة ، لتقرأ أسماء نحو مائتي علم أو فن، كعلم آداب البحث والمناظرة، والاختلاج، والأسطرلاب ، والأكر ، والآلات الحربية ، والآلات الرصدية ، وآلات الساعة ، والآلات الظلية ، وعلم انبساط المياه ، وعلم الأوزان والمقادير ، والباه ، والبرد ومسافاتها ، والبنكامات ، والبيزرة ، والبيطرة ، وتحسين الحروف ، وتدبير المدينة ، وتدبير المنزل ، وترتيب العسكر ، وتركيب المداد ، **والتصوف** وتعبير الرؤيا ، والجبر والمقابلة ، والجراحة، وجر **الأثقال** ، والجغرافيا ، والجفر ، والجهاد ، والحروف والأسماء ، والحكمة ، والحيل الساسانية ، والرصد ، والرمل ، والرمى ، والرياضة ، والريافة ، والزيج ، والزايرجة ،

والسياسة ، والسيمياء ، والشروط والسجلات ، والصيدلة ، والطبخ ، والطلسمات ، والطيرة ، والعدد ، وعقوبة الأيتية، والفتاوي، والفراشة، والفلاحة، والفلقطيرات ، والقرانات ،والقرعة ، وقلع الآثار، وقوانين الكتابة، وقَود العساكر والجيوش، والكحالة، وكشف الدك، والكهانة، والكيمياء، ومراكز الأثقال، والمرايا المحرقة،والمساحة، والمعادن ، والمعمى ، والملاحة ، والملاحم ، والموسيقى ، والميقات ، والنبات ، ونزول الغيث ، والنيرنجات ، والوصايا ، والوضع ، والهندسة ، والهيئة. . . إلى كثير جدًّاً مما أغفلت ذكره.

هذه بعض أسماء علومهم ، وهي قلّ من كثر كما يقولون ، ومن الإطالة غير المقبولة هنا أن نفسر مدلول هذه العناوين ؛ فإن حاجى خليفة قد تكفل في كتابة الخالد «كشف الظنون» بتوضيح تلك المدلولات وتقديم دراسات موجزة عنها .

وفي المكتبات العامة في العالم ، وهي تناهز ألفاً وخمسمائة على ما أحصاه الفيكونت فيليب دي طرازي في كتابه المسمى «خزائن الكتب العربية في الخافقين».

أقول : في تلك المكتبات البالغة هذا العدد[1] آثار خالدة خلود الأهرام، وهي جديرة حقاً بـأن يتعاقب المحققون على تمهيد السبل لـلانتفاع بهـا والاستمداد منها .

إن مؤرخي العلوم يعـزون إلى أسلافنـا العـرب ابتكارات في مجالات الهندسة والطب والحساب والجبر والمقابلة والبصريات ، بل في مجال التشريع والاجتماع وفلسفة التاريخ والنقد الأدبي :

(1) ذكر أن منها في مصر ١٦ مكتبة، وفي الجزائر ٨، وفي فلسطين ٦ ، ولبنان ٣، وسروريا والعراق والحجاز واليمن ١٥، والمغرب الأقصى ١٠، وتونس ٧، والولايات المتحدة ٢٨٥، وألمانيا والنمسا ١٤٥ ، والاتحاد السوفييتي ١٢٠، وبريطانيا ٧٦ ، وفرنسا ٦٧ ، وإيطاليا ٤٨، وسويسرا ٢١، وهولاندة ١٥، وبلجيكا ١٣، واليابان ٩، والدانمرك ٦ ، واليونان ٢، والهند ٣، وإيران ٣. وفي هذه المكتبات نحو ٢٦٢ مجلداً.

وهذا الإحصاء المكتبي والكتبي إنما يرجعِ إلى سنة ١٩٤٨ وهو تاريخ طبع كتابه، ومن البديهي أنه تعرض بعد هذا التاريخ لزيادة كبيرة تحتاج الى متابعة.

ففي الهندسة نجد محمد بن جابر البتاني (٣١٧)، وأبا الوفاء البوزجاني (٣٨٨) بتبنِّيان طرقاً قديمة أو مبتكرة لحساب المثلثات من بين فروع الهندسة ، حتى إذا جاء نصير الدين الطوسي (٦٧٢) كان أول من جعل من حساب المثلثات علماً خاصاً منظماً. فإلى العرب يرجع الفضل في وضع هذا العلم المستقل الذي كانوا يسمونه أحياناً «علم الأنساب» لقيامه في معضم الأمر على النسبة بين أضلاع المثلث.

وفي الطب نجد أبا بكر الرازي (٣٢١) صاحب كتاب «الحاوي» و«المنصوري»، وهو أول من استخدم «فتيلة الجرح» التي لا تزال مستعملة إلى الآن ، وهو الذي ابتدع صنع الخيوط الجراحية من مصارين الحيوان ، وأول من استخدم الرصاص الأبيض في المراهم.

وأعظم أطباء الإسلام الرئيس أبو علي الحسن بن عبد الله بن سينا (٤٢٨) صاحب كتاب «القانون» الذي لا يزال إلى اليوم من أهم مراجع الطب والعلاج، وهو الذي ذكر أن السبيل الوحيد للشفاء من الأورام الخبيثة ، (السرطان) إنما هو الجراحة المبكرة في

الأدوار الأولى للمرض، وأن الاستئصال يجب أن يكون على نطاق واسع وعمق كبير ، مع العناية الشديدة بتعقيم المنطقة الباقية بعد الاستئصال .

كما يذكرون أن ابن النفيس علي بن أبي الحزم القَرْشي[1] (٦٩٨) صاحب كتاب «الموجز»، وهو مختصر قانون ابن سينا ـ كان أول من اكتشف الدورة الجزئية للدم بين القلب والرئتين .

وللعرب مفخرة عريضة في وضع علم الجبر والمقابلة ، وينتمي وضع هذا العلم إلى العالم الكبير محمد بن موسى الخوارزمي (٢٣٢)، فهو الذي ابتدعه وسمّاه، ووضع مصطلحاته ، ولا يزال هذا الاسم العربي مسيطراً على جميع لغات العالم Algebra, Algèbre كالإنجليزية والفرنسية والألمانية .

وأما علم البصريات فنجد أبا علي الحسن بن الحسن بن الهيثم البصري (٤٣٢) يبتدع نظريات

---

(١) أصله من بلدة «قرش» بفتح القاف، بلدة فيما وراء النهر. وقد ولد في دمشق ثم سكن مصر وأقام بها إلى أن توفي.

الضوء، ويضع في ذلـك كتاب «المنـاظر» الـذي يعد الدعامـة الأولى في بناء هـذا العلم، وقد شـرح فيه انكسار الضوء، وبين كيف تتم رؤية الأشياء، وهو سبق علمي خطير.

ونجد كذلـك سبق العرب في مـوسوعـات الفقه الإسلامية كمبسوط السرخسى ومدونة مالك ، وكتب الفتاوي .

الإيمان بالتراث

كما أن الوطن هو المهد الأول لجسم الإنسان ، يحنُّ إليه كلما بعد به المطاف في بلاد الله ، ويشعر في قرارة نفسه بحبه وتفدتيه ، والاستهانة ببذل المال والنفس في سبيل الحفاظ عليه ، ويدين له أبداً بالولاء والإعزاز مهما أغرته المغريات ، وباعدت بينه وبين أرضه ضرورات العيش، كذلك يعد التراث الفكري هو المهد الأول لتفكيره ولنفسه . وأي انفكاك بين المرء ووطنه ، أو بين المرء وتراثه ـ يخلق منه امرأً تتجاذبه أطراف الضياع وفقدان النفس. وضياع النفس مدعاة إلى التفكك والتخلخل ، والشعور بالبؤس والمذلة اللتين لا تطيب معهما الحياة .

وإذا ذهبت في المقابلة بين جيلنا الذي نشأنا فيه وبين هذا الجيل الذي يعيشه أبناؤنا ـ وجدنا الفرق شاسعاً بين شعورنا بكياننا العزيز الوثيق ، وكيان بعض

أبنائنا الذين انفصلوا عن المتعة بالتراث العربي متمثلاً في ضروبه المختلفة :

فهذا التراث الديني في كتبه التي كانت ميسرة لنا ، وكانت موضع اهتمامنا ؛ والتراث الأدبي واللغوي الذي كان لكل منّا قدر وافر من الاطلاع عليه وتمثّله حفظاً أو قراءة أو رواية . وكذلك التراث التاريخي الذي كنا نملأ بـه المجالس مـذاكرة ومسـاجلة ، والتـراث القصصي متمثلاً في قصص عنترة بن شداد ، وألف ليلة وليلة ، وإعـلام الناس بمـا وقع للبـرامكـة مـع بني العبـاس للإتليدي ونحوها . هذا بالإضافة إلى دواوين فحول الشعـراء كأبي تمـام والبحتـري والمتنبي وأبي العـلاء، والقصائد والمعلقات .

ولم يكن في جيلنا من لا يحفظ للحريري أكثر من مقامة ، ثم ينظر من بعد ذلك في كامل المبرد وأمالي القالي ، وفي العقد الفريد وأغاني أبي الفرج . وكانت الكتب المدرسية حافلة بعيون التراث نستظهر منها جياد النصوص وحسان الخطب ، وكان بعضنا يحفظ ديوان شعر بأكمله، أو يستظهر جمهوره.

كيف نستعيد هذا الإيمان ؟

وإني لأعتقد أن هذه النكسة التي يحياها أبناؤنا اليوم هي في سبيل الانقشاع بفضلِ الجهود المكثفة التي يتضافر عليها العلماء المحققون الغُيُر الذين يتنادون في مختلف أصقاع العالم العربي، ويتكاتفون على إحياء تراثنا العربي لتقديمه إلى ناشئة اليوم وشيوخ الأمس.

إن لنا لماضياً رائعاً ، حافلاً بألوان جميلة حقاً من فنون الأدب وضروبه ، وهو ماضٍ جدير بأن نفخر به ونعتز ، وأن نجيل النظر فيه ، فنظرٌ بالممتع العجيب !

إنه لم يتح للكثير منا اليوم أن يتصلوا بهذا الأدب العربي القديم اتصالاً صالحاً ، يفتح أعينهم على ما فيه من خير وما فيه من عجب: فهذه الاضطرابات السياسية ، وهذه الفوضى الفكرية التي ضربت أطنابها في أرجاء الأمة العربية ، وباعدت بيننا وبين موارد الأدب العربي القديم ـ جعلت أبناءنا ينظرون إلى هذا اللون الثقافي نظرتهم إلى شيء غريب عنهم.

إنني أعني بالأدب العربي القديم ، ذلك الإنتاج الخصب الذي يبدأ من عهود الجاهلية ، ثم يترامى إلى

آفاق القرن الرابع أو الخامس الهجري ، فإن ذلك العهد الإسلامي يمت بسبب وثيق إلى عهد الجاهلية ، ويحذو حذوه في كثير من الأمر، ويستمّد اكثر ما يستمد من معينه، وفي حافظ الأدباء إلى حد ما على سلامة اللغة وسلامة الذوق العربي الذي ينسجم مع هذه اللغة انسجاماً، ويلتئم بها التئاما.

ولقد نقلت إلينا أمهات الكتب ذلك الأدب في صدق وأمانة ، وساقت إلينا روائع كثيرة ، ولكننا نغمض أعيننا دونها ، لأننا نجد فيها الصعوبة، ولا نجد اليسر واللين اللذين يجذباننا إلى قراءة الأدب المعاصر!

إن هذه الصعوبة ترجع إلى أمور شتى:

منها غرابة هذه اللغة التي تحتاج الى ترجمان يفتح مغلقها ويجلو وجهها.

ومنها ما قد يظهر من إخفاق هذه المؤلفات في طريقة العرض، وعدم مسايرتها للأساليب الحديثة المؤسسة على جانب كبير من مقتضيات علم النفس ومناهج الترغيب.

ومن أسباب ذلك أيضاً تلك الجناية التاريخية التي يجنيها الناسخون والطابعون، فيشوهون معالم هذا التراث، ويزيدونه عسراً فوق عسر.

ومن علل هذه الصعوبة أيضاً بُعد العهد بملابسات تلك الوقائع الأدبية وظروفها وأجوائها. وبدون معرفة هذه الظروف والأجواء قد يخفق القارىء في فهم تلك النصوص، ويقع في لج من الحيرة والارتياب.

ومما حمل النشء أيضاً على هذا الرفض ـ ضعف الدعوة إلى هذا الأدب الرفيع في الوقت الذي ظهرت فيه دعاوة مغرضة متعمدة، تقصد إلى توهين شأنه وتحقيره ورميه بالضعف، كما رميت لغته من جانب آخر بعجزها عن مطاوعة ما تقتضيه الحياة المعاصرة. وقام بهذه الدعوة بعض ضعاف النفوس الذين يودون أن لو زالت هذه اللغة، وضاع أدبها، وأمّحت ثقافتها في لمحة الطرف أو غمضة العين، إذ قالوا: إن الأدب العربي أدب ناقص ينقصه الكثير من مقومات الآداب!

أما صعوبة اللغة فليست ترجع إلى طبيعة اللغة، وإنما ترجع إلى أمرين رئيسيين:

أما أحدهما فهذه اللغات العامية التي تثير الاضطراب فيمن يقبل على تعلم العربية، فتأخذه إلى هوة من الشك ما يدري: أعربي ذلك اللفظ أم دخيل؟ وما يدري أيضاً: أعربي هذا الأسلوب أم أعجمي ؟ ثم هو يجد نفسه في عالم غريب من دنيا الألفاظ! لأنه لا يتكلم في بيته أو في معهده أو في ناديه إلا لغة عامية شتان ما بينها وبين فصيح اللغات !

وأما الآخر فهو هذا الداء العضال، هو المدرسة: فهذه الأداة التي كان يظن بها أن تكون عاملاً على إنهاض اللغه وإقالتها من عثرتها ـ أصبحت هي حجر العثرة في طريق نهضة اللغة ، لا بأساتذتها ومعلميها الذين لا يزالون يرتضخون لكنة عامية فحسب ، بل بقصور مناهجها وارتباك أساليبها في تعليم هذه اللغة، لأنا لم نصنع تلك المناهج بأيدينا في بادىء الأمر ، بل ساقها إلينا الدخيل في لفافة من السياسة الاستعمارية ، ثم كف يده ، وظللنا نحن لا نكف عن السير في ذلك التيار الذي دُفعنا إليه دفعاً.

وهذا هو السر في إخفاق كثير من الطلاب الذين اكتفوا بجهد المدرسة الضئيل، فحرموا أنفسهم المتاع

الطيب بهذا الأدب ، على حين نجد من درسوا بأنفسهم وكان لهم ميل خاص ومجهود شخصي - قد فازوا بهذه المتعة ، ونجحوا نجاحاً ظاهراً؛ لأنهم لم يتقيدوا بالقيد المدرسي، فاتسعت أمامهم آفاق المعرفة واحداً بعد الآخر. والعلم وَلود كما يقولون !

وحين تتخلص اللغة العربية من هذه القيود ، وتختص اللغة العربية بالعناية الواجبة - حينئذ نمتلك لغتنا امتلاكاً خالصاً، ونشعر باستقلالنا الروحي الثقافي ، الذي هو أعلى مقاماً وأعزّ شأناً من سائر مظاهر الاستقلال .

دفاع عن التراث الأدبي الأصيل:

إن النظرة الشعوبية التي توجه إلى الأدب القديم ، وادعاء أنه أدب استجداء، وأنه أدب سطحي، وأن مراجعه قد أخفقت في عرض ما بها من آثار أدبية ، وأنها لا تلتزم نظم التأليف، وأن بها إطالة غير مجدية حين تذكر الأسناد أو تعيد الخبر وتكرره بروايات متعددة - إن تلك الادعاءات الباطلة التي قام بها أمثال سلامة موسى وحوارييه لن تصنع شيئاً في هذا الطود الشامخ .

وفي الحق أن في النصوص القديمة أدب استجداء، ولا يزال هذا النَّهج ظاهراً أمام أعيننا في الأدب الحديث عربيًّا كان أو غير عربي ، ولكن الحكم بالتعميم حكم ظالم ، فإننا نجد في الأدب القديم مواقف نموذجية للكرامة والاستعلاء، بالإضافة إلى المواقف العادلة المتزنة.

وقد هجا الشعراء في الجاهلية عمرو بن هند هجاء مقذعاً لم يعبئوا بملكه وسلطانه : نجد صورة جريئة منه في شعر طرفة بن العبد إذ يقول:

فليت لنا مكانَ المَلْكِ عمرو
رَغوثاً حول قُبَّتنا تدورُ[1]
من الزَّمِرات أسبلَ قادِماها
وضرَّتها مركَّنة دَرور[2]

ونرى عمرو بن كلثوم يستعلى عليه، ويتجاهل سلطانه وسطوته ويخاطبه في شموخ:

---

(١) الرغوث: النعجة المرضع.

(٢) الزمرات القليلات الصوف.

تهـددْنــا وأوعــدنــا رويـداً
متى كنـا لأمـك مـقتـويـنـا ؟
فـإنَّ قنـاتنـا يـا عـمـرو أعيـت
عـلى الأعـداء قبلك أن تـلينـا

ونجد المتنبي يوجه السخرية والهجاء إلى كافور الإخشيدي، وينظر إليه من الأعلى فيقول :

أكلَّما اغتـال عبـد السَّـوء سيـدهُ
أو خـانـه فلـه في مصـر تمهيـدُ
صـار الخصيّ إمـامَ الآبقين بهـا
فـالحرُّ مستعبَدٌ والعبـد معبـودُ
نـامت نـواطيرُ مصرٍ عن ثعـالبها
فقـد بشِمْنَ ومـا تَفنى العنـاقيـدُ
العبـد ليس لحرٍّ صـالـح بـأخ
لـو أنّـه في ثيـاب الحرِّ مـولـودُ
لا تشتـر العبدَ إلا والعصـا معـه
إن العبيـد لأنجـاس منـاكيـد

ويقول :

وتعجبني رجلاك في النعل، إنني
رأيتك ذا نعلٍ وإن كنتَ حافيا
وإنَّك لا تدري ألونُك أسودٌ
من الجهل، أم قد صار أبيض صافيا؟
ومثلُك يؤتي من بلادٍ بعيدة
ليضحك ربّاتِ الحداد البواكيا!

بل ألفت كتب خاصة في مثالب الوزراء. وقد صنع أبو حيان كتاب «مثالب الوزيرين» ـ الصاحب بن عباد، وإبن العميد ـ فلم يدع لهما كما يقولون أديماً صحيحاً. وكتابه هذا مطبوع متداول[١].

وإذا سلمنا بأن شعر المدح قد يحتمل الرياء والنفاق والتذلل ـ أفليس هناك شعر للفخر، وشعر في الغزل والتشبيب وشعر في الوصف، وآخر في المراثي والتعازي وكل أبواب المعاني التي لم يدع الشعراء منها شاردة أو واردة، أليس في ذلك كله آيات في الروعة والسمو وعجيب البيان. وإن بيتاً واحداً من أبيات المتنبي أو أبي

---

(١) بتحقيق إبراهيم الكيلاني. طبع دار الفكر بدمشق.

العلاء لأعلى كعبا وأسمى شأناً من أمثال هذه الكتب الشعوبية المغرضة!

وأما ادعاء السطحية فباطل كذلك: فإن ما تعجّ به الآثار الأدبية القديمة من حكم وأمثال سائـرة، ومن عمق المعاني ودقة الأفكار ـ ما لا يحوج المدافع إلا أن يمسك بأصابع المدعي ليضعها فوق النصوص العميقة متتالية متوالية:

ومـا كـلُّ ذي لّبٍ بمؤتيـكَ نُصْحَـه
وما كـلُّ مـؤتٍ نـصحـه بلبيـبِ

والـنـفسُ راغبـةٌ إذا رغّبتَهـا
وإذا تُـرَدُّ إلى قـليـلٍ تـقـنـعُ

فاستقدِرِ الله خيـراً وارضَيـنَّ بـه
فبينمـا العسرُ إذ دارت ميـاسيـر

ستُبدي لك الأيامُ ما كنتَ جاهلاً
ويأتيك بالأخبار مَن لم تزوِّد

اعمـد إلى الحـقِّ فيـما أنـت فـاعلهُ
إنَّ الـتخـلُّق يـأتي دونـه الخُـلقُ

والمـرءُ سـاعٍ لأمـرٍ لـيس يُـدركُـه
والـعيشُ شُـحٌّ وإشـفـاقٌ وتـأمِيـلُ

وعـينُ الـرضـا عن كـلِّ عيبٍ كليلة
ولكنَّ عـين السُّخطِ تـبـدي المسـاويـا

أرى بصـري قـد رابَني بـعـد صحّـة
وحـسبُـك داءً أن تـصـحَّ وتـسـلـما

وإن ضـيِّـع الإخـوانُ سـرًّا فـإنـني
كَـتـومٌ لأسـرارِ الـعـشـير أمـينُ
يكـون لـه عنـدي إذا مـا ائتمنتـه
مـكـانٌ بـسـوداء الـفـؤادِ مـكـينُ

فـإذا اسـتـودَعْـتَ سـرًّا أحـداً
فـقـد اسـتـودعـتَ بـالسِّـر دمَـك

أبـكـى الـذيـن أذاقُـوني مـودتَهـم
حتّىَ إذا أيـقـظوني في الهـوى رَقَـدوا

أجـارتَـنـا إنـا غـريـبـان هـاهـنـا
وكـلُّ غـريـبٍ للـغـريـب نـسـيـبُ

وإنّمـا أولادُنـا بـيـنـنـا
أكـبـادُنـا تمـشـي عـلى الأرضِ

قومي هُم قتلوا، أميم، أخي
فإذا رَميتُ يُصيبني سهمي!

فتضاحكنَ وقد قلن لها
حسنٌ في كلِّ عينٍ مَن تَودْ

وإنّ صخراً لتأتم الهُداةُ به
كأنه علمٌ في رأسه نار

لا تَعجبي يا سَلم من رجلٍ
ضحك المشيبُ برأسِه فبكى

ستَقربُ الدارُ شوقاً وهي نازحة
من فاتَه العينُ لم يستبعد الأثَرا

وأما أنّ مراجعه قد أخفقت في عرض ما بها من آثار أدبية فقول باطل. وسيقول بعضهم: إني لأستفتح كتاباً من كتب الأدب العربي فيقفز في عيني: «حدثنا فلانٌ عن فلان أن فلاناً حدثه بكذا وكذا» وإذا «كذا وكذا» هذه كلمتان أو ثلاث لا تسمن ولا تغني من جوع، فما هذا الضرب من التأليف الذي يعمد إلى الإطالة وإلى إضاعة وقت القارىء؟

فنقول له: إن هذا السند الذي يجعله المؤلف في

صدور أخباره هو الوثيقة التي يعتمد عليها في تحقيق ذاك الخبر أو تلك الرواية. وهذا أمر له وزنه وقيمته عند المحققين، ولا عليك أن تغض الطرف عنه حيناً وألا ترجع إليه إلا إذا كنت من أهل التحقيق.

وسيقول بعضهم: إني لأقرأ في كتاب من تلك، فأراه لا يتحدث في موضوع خاص أو قضية معينة؛ وإنما يتنقل فيه المؤلف من معنى إلى ثان، ثم يطفر إلى ثالث لا يربطه بالأول ولا بالثاني إلا رباط هين يسير!

فنقول له: إن هذا أسلوب فني يستروح به القارىء، وينتقل به كما تتنقل النحلة في أزهارها ترشف رحيق هذه لتنال من رحيق تلك، وهو أسلوب نفسي تعالج به السآمة والملل، ويجتذب به نشاط القارىء بما يعرض به من مختلف الصور.

ولعل زعيم هذا الأسلوب من التأليف هو صاحبنا الجاحظ، الكاتب المرح، الذي لا يترك القارىء دون أن يزوده ببعض الطرف والنوادر مهما يكن نوع الحديث الذي يسوق فيه القول. وفي ذلك يقول[1]:

---

(١) الحيوان ٣: ٧.

وإن كنا قد أمللناك بالجد وبالاحتجاجات الصحيحة والمزّوجة ، لتكثّر الخواطر، وتُشحَذُ العقول ـ فإنا سننشطك ببعض البَطالات ، وبذكر العلل الظريفة، والاحتجاجات الغريبة. فرب شعر يبلغ بفرط غباوة صاحبه، من السرور والضحك والاستطراف ـ ما لا يبلغه أحر النوادر وأجمع المعاني.

وأنا **استظرف** أمرين استظرافاً شديداً: أحدهما استماع حديث الأعراب ، والأمر الآخر احتجاج متنازعين في الكلام وهما لا يحسنان منه شيئاً؛ فإنهما يثيران من غريب الطِّيب ما يضحك كل ثكلان وإن تشدّدّ ، وكلَّ غضبانَ وإن أحرقه لهيب الغضب !

عبقرية التأليف العربي:

على أننا كذلك نلقي نماذج أخرى من جياد الكتب محكمةً في التأليف رائعة في نظامه، نجدها في كتب الثعالبي، ومؤلفات ابن قتيبة ككتاب المعارف، وكتاب المعاني الكبير، وعيون الأخبار ، ومنها كتاب نهاية الأرب للنويري ، وصبح الأعشي للقلقشندي، ومحاضرات الراغب الأصفهاني.

كما نجد كتب تفسير القرآن الكريم لكل منها منهج خاص يرضي مختلف الأذهان والأذواق:

فمنها ما يهتم بالرواية والتوثيق مع عذوبة الأسلوب ودقة البيان كتفسير الطبري، وعلى هذا المنهج يسير ابن كثير في تفسيره مع اهتمامه البالغ بتفسير القرآن بالقرآن، وهو أعظم ما عرف من كتب التفسير سرداً للآيات المتناسبة في المعنى الواحد.

ومنها ما يجعل وُكده العناية بالتطبيق البلاغي كتفسير الزمخشري المسمى بالكشاف، وليس هناك ما هو أفسح مجالاً وأوسع أفقاً منه في هذه الزاوية .

ومن التفاسير ما يهتم بالرأي والاجتهاد، ومنها تفسير الفخر الرازي المسمى بمفاتيح الغيب. ونحوه تفسير البيضاوي والنسفي.

ومنها ما يكون اهتمامه بمسائل العربية والقراءات ظاهراً، كتفسير أبي حيان، المسمى بالبحر المحيط. ويهتم النيسابوري بذكر القراءات.

كما أن تفسير الخازن مفعم بذكر القصص، ولا

سيما الإسرائيليات. وتفسير ابن عربي مترع بالمسائل الصوفية والتأويلات الباطنية.

ومن غرائب كتب التفسير تفسير البقاعى المسمى بالمناسبات . وقد حرص فيه على بيان مناسبة كل سورة لما قبلها من السور ، ثم توضيح مناسبة كل آية لما قبلها من الآيات، ثم فلسفة مناسبة كل لفظة لما قبلها من الألفاظ. وهو كتاب عجيب حقًا، نتمنى أن يرى النور ويراه النور.

وهكذا نجد في فن واحد من فنون التراث الإسلامي ألواناً مختلفة من التأليف يلتزم كل منها نظاماً معيناً يحتذيه ويسير عليه ، وهو الأمر الذي يجعلنا نؤمن بالمنهجية التاليفية المنظمة عند أسلافنا العرب.

وإذا نظرنا إلى المؤلفات في علم الحديث أو في الفقه ، أو في الأصول ، أو في اللغة أو معاجمها ـ وجدنا كثيراً من الالتزام والنظام اللذين عاب علينا فقدهما بعض من ينظرون إلى الأمور نظرة لا تمتد إلى الغور، ولا تخترق ظواهر الأمور إلى بواطنها.

إن المكتبة العربية مكتبة قوية حقًا، وإن في أدباء

العربية وعلمائها لمجموعة صالحة مفرطه العدد من الأدباء والعلماء الذين ارتقوا إلى الصف العالمي، عبقرية وامتيازاً .

في المكتبة العربية دواوين لا يحصيها العد، تجد فيها كل نفس ما يرضيها . وفيها مؤلفات طريقة تتناول ما تتناوله اليوم أرقى الآداب المعاصرة.

نماذج من كتب التراث

أمامنا كتاب «البخلاء» للجاحظ، وهو الكتاب الفذ الذي لم تقع العين على مثله في مخلفات الماضين إن لم نقل المعاصرين. وفيه صور البخل والبخلاء أصدق تصوير وأدقّه وأبلغه. ولو كانت لغة الجاحظ وأضرابه في متناول فهم معاصرينا اليوم لانصرفوا إليها انصرافاً، وشغفوا بها حبًّا، ولكننا لا نزال نرقب فجر ذلك اليوم الذي نسترد فيه مجدنا اللغوي ونستعيد حريتنا الثقافية. وإنه لقريب.

انظر إلى قصة الكندي، يقول الجاحظ:

كان الكندي لا يزال يقول للساكن، وربما قال للجار: إن في الدار امرأة بها حمل، والوحمى ربما أسقطت من ريح القِدر الطيبة؛ فإذا طبختم فردوا شهوتها ولو بغرفة أو لعقة؛ فإن النفس يردُّها اليسير.

قال : فكان فكان ربَّما يوافي إلى منزله من قصاع الجيران والسكان ما يكفيه الأيام!

وكان الكندي يقول لعياله : أنتم أحسن حالاً من أرباب هذه الضياع : إنما لكل بيت منهم لون واحد، وعندكم ألوان !

ويقول في حديث خالد بن يزيد: إنه وقف عليه ذات يوم سائل وهو في مجلس من مجالسهم ، فأدخل يده في الكيس ليخرج فلساً ، وفلوس البصرة كبار فغلط بدرهم بغلى[1]، فلم يفطن حتى وضعه في يد السائل ، فلما فطن استرده وأعطاه الفلس، فقيل له: هذا لا نظنه فطن يحل ، وهو بعدُ قبيح ! قال : قبيح عند من؟ إني لم أجمع هذا المال بعقولكم فأفرقه بعقولكم ! ليس هذا من مساكين الدراهم، هذا من مساكين الفلوس، والله ما أعرفهُ إلا بالفراسة !

---

(١) نسبة إلى ضرب يهودي يعرف برأس البغل. وقدرت سعته بسعة الراحة. حواشي النقود الإسلامية للمقريزي ص ٢٢.

وأمامنا أيضاً معجزة التأليف العربي ، كتاب الحيوان للجاحظ ، الذي يعد أول موسوعة عربية تناولت اطراف القول في علوم الدنيا . وقد وشّعت هذه الموسوعة بدرر من فكاهة القول وطريف القصص.

هذا عبد الله بن سوّار القاضي، قاضي البصرة[1] كان محور طرفة خالدة له ، وصورة رائعة دقيقة من صور البيان الملوَّنة، يرسمها الجاحظ ناطقة ساكنة في أسلوبه الخاص:

كان لنا بالبصرة قاض يقال له عبد الله بن سوّار، لم ير الناس حاكماً قط ولا زَميتاً ولا ركيناً[2]، ولا وقوراً ولا حليماً، ضبط من نفسه ، وملك من حركته ـ مثل الذي ضبط وملك ! كان يصلي الغداة في منزله ، وهو قريب الدار من مسجده ، فيأتي مجلسه فيحتبي ولا يتكىء، فلا يزال منتصباً لا يتحرك له عضو ولا

---

(١) الحيوان ٣ : ٣٤٣.

(٢) الزميت: العظيم الوقار. والركين: الرزين

يلتفت ، ولا يَحُلُّ حُبوتـه[١]، ولا يحـوِّل رجـلاً عن رجل ، ولا يعتمد على أحد شقيه كانه بناءٌ مبنى أو صخرة منصوبة ، فلا يزال كذلك حتى يقول لصلاة الظهر، ثم يعود إلى مجلسه فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب ، ثم ربما عاد إلى محلِّه، بل كثيراً ما يكون كذلك إذا بقي عليه من قراءة العهود والشروط والوثائق ، ثم يصلي العشاء الأخيرة وينصرف.

فالحق يقال : لم يقم في طول تلك المدة والولاية مرة واحدة إلى الوضوء، ولا احتاج إليه، ولا شرب ماءً ولا غيره من الشراب . كذلك كان شأنه في طوال تلك الأيام وفي قصارها ، وفي صيفها وفي شتـائها ! وكان مع ذلك لا يحرك يده ، ولا يشير برأسه ، وليس له إلا أن يتكلم ثم يوجز ، ويبلغ بالكلام اليسير المعاني الكثيرة.

فبينا هو كذلك ذات يوم وأصحابه حواليه ، وفي السماطين[٢] بين يديه ـ إذ سقط على أنفه ذباب فأطال

---

(١) الحبوة : أن يجمع الرجل بين ظهره وساقيه بثوب، وقد يكون الاحتباء باليدين.

(٢) السماط : الصف.

المكث ، ثم تحول إلى مؤق عينيه[1] ، فرام الصبر في سقوطه على المؤق ، وعلى عضه ونفاذ خرطومه ؛ كما رام من الصبر على سقوطه على أنفه ، من غير أن يحرك أرنبته[2] أو يغضِّنَ وجهه ، أو يذب بإصبعه ! فلما طال ذلك عليه من الذباب وشغله ، وأوجعه وأحرقه ، وقصد إلى مكان لا يحتمل التغافل - أطبق جفنه الأعلى فلم ينهض ، فدعاه ذلك إلى الموالاة بين الإطباق والفتح ، فتنحى ريثما سكن جفنه ، ثم عاد إلى مؤقه باشد من مرّته الأولى ، فغمس خرطومه في مكان كان قد أوهاه قبل ذلك، فكان احتماله أضعف ، وعجزه عن الصبر في الثانية أقوى ، فحرّك أجفانه وزاد في شدَّة الحركة وفي فتح العين ، وفي تتابع الفتح والإطباق ، فتنحى عنه بقدر ما سكنت حركته ثم عاد إلى موضعه ، فما زال يلح عليه حتى استفرغ صبره ، وبلغ مجهوده ، فلم يجد بداً من أن يذب عن عينه بيده ، ففعل وعيون القوم ترمقه وكأنهم لا يرونه ، فتنحَّى عنه بمقدار ما رد

(١) مؤق العين: طرفها الداخلي. واللحاظ: طرفها الخارجي.

(٢) الأرنبة: طرف الأنف.

يده وسكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، ثم ألجأه إلى ذَبِّ عن وجهه بطرف كمه ، ثم ألجأه إلى أن تابع بين ذلك ، وعلم أن فعله كله بعين حضره من أمنائه وجلسائه ، فلما نظروا إليه قال : أشهد أن الذباب ألج من الخنفساء، وأزهى من الغراب ! وأستغفر الله فما أكثر من أعجبته نفسه ، فأراد الله عز وجل أن يعرِّفه من ضعفه ما كان مستوراً ! وقد علمت أني عند الناس من أزمت الناس، فقد غلبني وفضحني أضعف خلقه ! ثم تلا قوله تعالى: « وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب » .

ويعرج على ذكر ما يثير العجب في أنماط شتى من الناس، طبقاً لأمزجتهم واختلاف نفوسهم ، فيقول [1] :

وقال رجل مرة : أخزى الله الفيل فما أقبحه ! فقال بكر بن عبد الله : لا تشتم شيئاً جعله الله آية في الجاهلية ، إرهاصاً في النبوة !

---

(١) الحيوان: ٧ : ٢٠٢ .

وقال سعدان الأعمى النحوي : قلت للأصمعي : أيَّ شيء رأيت أعجب ؟ قال : الفيل .

وقيل لابن الجهم : أي أمور الدنيا أعجب؟ قال : الشمّ

وقيل لإبراهيم النظام : أي أمور الدنيا أعجب ؟ قال: الروح.

وقيل : لأبي شمر: أي أمور الدنيا أعجب؟ قال: النسيان والذكر.

وقيل لسلم الخلال : أي أمور الدنيا أعجب ؟ قال : النار .

وقيل لبطليموس : أي أمور الدنيا أعجب ؟ قال : بدن الفلك .

وقال مرة أخرى : الضياء.

وقيل لأبي عمرو بن قائد الأسواري : أي شيء مما رأيت أعجب قال : الآجال والأرزاق.

وهذا ابن قتيبة في مقدمة كتابه « الشعر والشعراء» يذكر قاعدة رائعة شاملة لنقد الشعر العربي ، فيقسمه

قسمة عادلـة واضحة ، لا يخـرج عنها، ولا يتجـاوز حدودها فيقول :

تدبرت الشعر فوجدته أربعة أضرب :

١ ـ ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه كقول القائل في بني أمية :

في كــفــه خـيـزران ريحـه عـبــق
من كـف أروع في عـرنـيـنـه شـمـم
يغضـي حيـاء ويـغضـي من مـهـابتـه
فـلا يـكـلـم إلا حـين يـبـتـسـم

لم يقل أحد في الهيبة أحسن منه . كقول أوس بن حجر :

أيـتـهـا الـنـفس أجمـلي جـزعـاً
إن الـذي تحـذريـن قـد وقـعـا

ولم يبتدىء أحد مرثية بأحسن منه ، وكقول أبي ذؤيب :

والـنـفس راغـبـة إذا رغَّـبـتَـهـا
وإذا تـرد إلى قـلـيـل تـقـنـع

٢ ـ وضرب حسن لفظه وحلا ، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك طائلاً كقول القائل :

ولما قضينا من منىً كلَّ حاجة
ومسَّح بالأركان من هو ماسحُ
وشُدّت على حُدب المهارِي رحلنا
ولم ينظر الغادي الذي هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا
وسالت بأعناق المطى الأباطح

وهذه الألفاظ أحسن شيء مطالع ومخارج ومقاطع ، فإذا نظرت إلى ما تحتها من المعنى وجدته : ولما قضينا أيام منى واستلمنا الأركان ، وعالينا إبلنا الأنضاء[١]، ومضى الناس لا ينتظر الغادي الرائح ـ ابتدأنا في الحديث، وسارت المطى في الأباطح.

وهذه الصنف في الشعر كثير. ونحوه قول المعلوط:

---

(١) الأنضاء : المهزولة، الواحد نضو بالكسر.

إن الذين غدوا بلبك غادروا
وشلاً بعينك ما يزال معينا[1]
غيّضن من عبراتهن وقلن لي
ماذا لقيتَ من الهوى ولقينا ؟

ونحوه قول جرير :

إن العيون التي في طرفها حورٌ
قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به
وهن أضعف خلق الله إنسانا

٣ ـ وضرب منه جاد معناه، وقصرت الألفاظ عنه ، كقول لبيد:

ما عاتب المرء الكريم كنفسه
والمرء يصلحه الجليس الصالح

هذا إن كان جيد المعنى والسبك ـ فإنه قليل الماء والرونق . وكقول النابغة للنعمان :

---

(١) الوشل هنا : الدمع الكثير. والوشل: قليل الدمع وكثيره. والمعين: الظاهر الجاري .

خــطاطـيـف حُـجن في حـبـــالٍ متـينــة
تُمَـــد بهـــا أيـــدٍ إلـــيـك نـــوازِعُ

قال أبو محمد[1]: رأيت علماءنا يستجيدون معناه، ولا أرى ألفاظه جياداً ولا مبينة لمعناه؛ لأنه أراد: أنت نفي قدرتك عليَّ كخطاطيف عقف يمد بها، وأنا كدلو تمد الخطاطيف.

وعلى أني أيضاً لست أرى المعنى حسناً.

٤ ـ وضرب منه تأخر لفظه وتأخر معناه، كقول الأعشي في أمرأة:

وفـــوهـــا كـــأقـــاحـــيٍّ
غـــذاه دائـــم الـــطَّلِّ
كـــما شـــيـــب بـــراحٍ بـــا
ردٌ مـــن عـــســـل الـــنـــحـــل

وكقوله:

---

(١) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، صاحب الشعر والشعراء.

إنَّ محلًّا وإن مرتحلا
وإن في السَّفر ما مضوا مهلا

أستأثر الله بالوفاء وبالـ
ـحمد وولي الملامة الرجلا

وهذا شعر منحول لا أعرف فيه شيئاً يستحسن إلا قولهِ:

يا خير من يركب المطيَّ ولا
يشرب كأساً بكف من بخلا

يريد أن كل شارب يشرب بكفه ، وهذا ليس ببخيل فيشرب بكف من بخل . وهو معنى لطيف.

نماذج من كتب الرحلات :

وقد شارك العرب في تأليف كتب الرحلات انطلاقاً وراء كتب الرحلات القديمة ، كرحلة هيرودوتس اليوناني.

ومن بين أقدم كتب الرحلات التي قام أصحابها بتصوير الشعوب ونقد أحوالها وشئونها الاجتماعية ـ نجد سابقة عريقة لأبي الصلت أمية بن عبد العزيز

الأندلسي المتوفي سنة ٥٢٨ قبل وفاة ابن جبير سنة ٦١٤ وعبد اللطيف البغدادي ٦٢٩ وابن بطوطة ٧٧٩.

يقول في مقدمة رحلته:

كنت إبان عصر الشباب مونق. وغصن الصبا مورق:

إذ لمتي مسودة
ولماء وجهي رونق

ممن سامحه الدهر بغفلاته، وتجافى له عن غفوة من غفواته، فعاش آمن السرب، سائغ الشرب، لا يتفرغ من أدب يرود رياضه، ويرد حياضه، إلا ألى طرب يغمر ميدانه، ويسحب ذيوله وأردانه. ثم تلّون لي فقلب لي ظهر مجنه، وسقاني وردى دنه، فتدارك ما أغفله، واسترد ما بذله، واضطررت إلى مفارقة الوطن، والخروج عن العطن، فتماسكت إشفاقاً من مفارقة أول أرض مسَّ جلدي ترابها، وشدّت عليّ التمائم بها، وجاءت أمور لا تطاق كبار. فلما لم يكن القرار، ولم يبق إلا الفرار - قلت: ليس لي إلا أن أرمى بنفسي كل مرمَى، وأطرحها كل مطرح.

لأبلغ عذراً أو أنال رغيبة
ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

وسكنت إلى البيت المشهور:

تلقي بكل بلاد إن حللت بها
أهلا بأهل وأوطاناً بأوطان

وإن كان يقول العامة : ليس بين بلد وبلد نسب ، فخير البلاد ما حملك . فجعلت أستقرى البلاد لأتيمم أوفقها للمقام ، وأعونها على مقارعة الأيام ، فكانت مصر مما وقع عليه اختياري ، وصدقت حسن ظني قبل اختباري. وسرت قاصداً إليها أعتسف المجاهل والتنائف ، وأخوض المهالك والمتالف : فطوراً أمتطى كل حالكة الإهاب[1]، مسودة الجلباب ، ثابتة كصبغة الشباب ، قد فسح ميدانها ، ووضع براحة الريح عنانها ، فجرت جرى الطِّرف الجموح ، وفاتت مدى الطرف الطموح . وطوراً كلَّ نقب الأياطل[2]،

(١) يعني السفينة.
(٢) الأيطل: الخصر. والنقب: تنفط الجلد، وإنما نقب لإدمان السير. يعني الفرس.

كالهياطل[1]، سبط المشافر جعد الأشعار، احتذى العقيق، أو الصنو الشقيق، إن علا قلت: ظليم خاضب، وإن هوى قلت: شهاب ثاقب، يصل الذميل بالوخاد، ويلتهم التهائم والنجاد، فكم من جزع وادٍ جزعتهُ، وجلباب ليل ادرعته، وكم برٍّ خرقت مخارمه وفجاجه، وبحر شققت غواربه وأمواجه، وليس لي غير مصر مقصد، ولا وراءها مذهب، ولا دونها للغني متطلب.

وكم في الأرض من بلد ولكن
عليك لشقوتي وقع اختياري

فلما تغمرت ركابي من النيل، واستندرت بظل المقطم - ألقيت عصا التسيار، واستقرت بي النوى، وخفت ظهورهن من الرحال، وأرحتهن من الحل والترحال، وقلت: ضالّتي المنشودة، وبغيتي المقصودة، هاهنا ألبث وأقيم، فلا أبرح ولا أريم: «بلدة طيبة ورب غفور».

---

(١) جمع هيطل، وهو الذئب. ويشبه به الفرس في شدة العدو.

ويقص لنا أبو الصلت قصة طبيب يعالج مرضاه بالعلاج النفسي ، وهو أحدث طرق العلاج وأعلاها في عصرنا الحاضر، فيقول :

ومن طريف ما سمعته أنه كان بمصر منـذ عهد قريب رجل ملازم للمارستان ، يستدعى للمرضى كما يستدعي الأطباء ، فيـدخل عـلى المريض فيحكي لـه حكـايات مضحكـة ، وخرافـات مسلية ، ويخـرج له وجوهاً مضحكة . وكان مع ذلك لطيفاً في إضحاكه وبه خبيراً ، وعليه قديراً فإذا انشـرح صدر المـريض وعادت إليه قوته تركه وانصرف ، فإن احتاج إلى معاودة المريض عاده إلى أن يبرأ ، أو يكون منه ما شاء الله !

فليت أطباء عصرنا هذا بأسرهم قدروا على مثل هذا العلاج الذي لا مضرة فيه ولا غائلة له ، بل أمره على العليل هين ، ونفعه ظاهر بـيّن ، كيف لا وهو ينشط النفس ، ويبسط الحرارة الغريزية ، ويقوي القوى الطبيعية ، ويقوى البدن على دفع الأخلاط الردية المؤذية والفضول ، مع الاستظهار بحفظ الاصول.

ونجده كذلك يفطن إلى ميل أهل مصر إلى استفتاء

المنجمين والركون إلى من يدعون معرفة الغيب ، وهو الأمر الذي لا تزال بقايا منه سائدة إلى وقتنا هذا ، فيقول :

والمصريون أكثر الناس استعمالاً لأحكام النجوم وتصديقاً لها ، وتعويلاً عليها ، وشغفا بها وسكوناً إليها . حتى إنه قد بلغ من زيادة أمرهم في ذلك ألاَّ يتحرك واحد منهم حركة من الحركات الجزئية التي لا تحصر فنونها ولا تحصّل أجزاؤها وأنحاؤها ، ولا تضبط جهاتها، ولا تقيد غاياتها ، ولا تعد ضروبها إلا في طوالع يختارونها ،ونصب يعتمدونها !

ومن الحكايات العجيبة في فرط استعمالهم لأحكام النجوم وعنايتهم بها ـ ما شهدت بالصعيد الأعلى : وذلك أن بعض الولاة حبس رجلاً من بعض أهل تلك الناحية كان ينظر في علم النجوم ، فشفع إليه فيه من يكرم عليه فشفعّه فيه ، وأمر بإطلاقه وكان من الحبس في عذاب واصب ، وجهد ناصب ، فلما أنحوه وقالوا له : انطلق لشأنك ـ أخرج من كمه **أصطرلاباً** فنظر فيه ، ثم أخذ طالع الوقت فنظر فيه فوجده مذموماً ، فسألهم أن يتركوه مكانه إلى أن يتفق وقت يصلح

للخـروج من السجن ! فعـادوا إلى الـوالي فـأخبـروه بخبره ، فضحك منه وتعجب من جهله وفساد عقله ، وأجابه إلى سؤاله ، وتركـه على حـاله ، وأطـال مدة اعتقاله !

وفي كتاب «الإفادة والاعتبار في الأمور المشـاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر»، المعروف خطأ برحلة عبد اللطيف البغدادي.

وهو عبارة عن فصلين من ثلاثة عشر فصلاً من تاريخه الكبير المسمى «أخبار مصر». وقد انتزع هذين الفصلين بعد اختصارهما وتهذيبهما اليكونا برسم الخليفة العباسي الناصر لدين الله أحمد بن المستضيء بأمر الله الحسن بن المستنجد بالله يوسف (٥٢٢ ـ ٦٢٢).

في هـذا الكتـاب المختصـر حـديث مسهب في خصائص مصر وآثارها ومقابر قدماء المصريين وتوابيتهم وتماثيلهم المتقنة ، وكيف برع المصريون في نحت جميع أجزائها ؟ فيقول بعد حـديث طويـل في تحليل هـذا النحت : «وأما حسن أوجهها وتناسبها فعلى أكمل ما في القوى البشرية أن تفعله ، وأتم ما في المواد الحجرية أن تقبله ، « ولم يبق إلا صورة اللحم والدم».

وأعجب ما في هذا الكتاب تسجيله لما شاهده بعينه في المجاعة التي حدثت بمصر سنة ٥٩٧ هـ .

ويقول في ذلك : « ودخلت سنة سبع مفترسة أسباب الحياة ، وقد يئس الناس من زيادة النيل ، وارتفعت الأسعار ، وأقحطت البلاد، وأشعر أهلها البلاء ، وهرجوا من خوف الجوع ، ووقع المرض والموتان ، واشتد بالفقراء الجوع حتى أكلوا الميتات ، والجيف ، والكلاب، والبعر والأرواث ! ثم تعدوا ذلك إلى أن أكلوا صغار بني آدم ؛ فكثيراً ما يعثر عليهم ومعهم صغار مشويون أو مطبوخون، فيأمر صاحب الشرطة بإحراق الفاعل لذلك والآكل.

ورأيت صغيراً مشوياً في قفة وقد أحضر إلى دار الوالي ومعه رجل وامرأة زعم الناس أنهما أبواه ، فأمر بإحراقهما .

وكان جماعة من الفقراء قد أووا إلى الجزيرة ، وتستروا ببيوت طين يتصيدون فيها الناس ، ففطن لهم وطلب قتلهم ، فهربوا . ووُجد في بيوتهم من عظام بني

آدم شيء كثير. وخبرني الثقة أن الذي وجد في بيوتهم أربعمائة جمجمة[1].

وهذا الكتاب جدير بإعادة نشره والتعليق عليه والإفادة منه ، وإن كان المستشرق الفرنسي دي ساسي قد عني بنشره متنا وترجمة سنة ١٨١١ ومن قبله قام إدوارد بوكوك الإنجليزي (١٦٠٤ - ١٦٩١) بترجمته إلى اللاتينية ، ثم نشره توماس هايد متنا وترجمة في أكسفورد (١٧٠٢).

(١) نحو هذه الأخبار ما جاء في النجوم الزاهرة في حوادث ٥٩٧ «كان الرجل يذبح ولده الصغير وتساعده أمه على طبخه وشيه، وأحرق السلطان جماعة فعلوا ذلك ولم ينتهوا . وكان الرجل يدعو صديقه وأحب الناس إليه إلى منزله ليضيفه، فيذبحه ويأكله. . .

إحياء التراث

ليس إحياء التراث أمراً حديثاً ؛ بل هو عمل طبيعي قامت به الأجيال القديمة على امتداد الدهر، وعلى صور شتى ، من نشر، أو تفسير، أو تلخيص ، أو نقد أو تعليق. فكم قد رأينا من كتب قديمة خلفها أصحابها فقام النساخون والوراقون بإحيائها وإذاعتها على نطاق واسع:

فالمقريزي في الخطط٢: ٢٥٣ ٢٥٥ يذكر أنه كان في خزانة العزيز بالله ٣٠ نسخة من كتاب العين، و١٠٠ نسخة من جمهرة ابن دريد . كما يذكر أنه في خزانة الفاطميين ١٢٠٠ نسخة من تاريخ الطبري.

ويروي ابن النديم (الفهرست ٣٦٩) في ترجمته ليحيى بن عدي المنطقي النصراني أنه كان ينسخ كتب التفسير والكلام . ويروي عنه أنه قال : نسخت بخطي نسختين من التفسير للطبري وحملتهما إلى ملوك الأطراف. وقد كتبت من كتب المتكلمين ما لا يحصى.

ومن طريف ما يروي عن أحد النحاة ، وهو يحيى بن محمد الأرزني ما ذكره ياقوت في شأنه : أنه كان يخرج في وقت العصر إلى سوق الكتب ببغداد، فلا يقوم من مجلسه حتى يكتب الفصيح لثعلب ، ويبيعه بنصف دينار، ويشتري نبيذاً ولحماً وفاكهة ، ولا يبيت حتى ينفق ما معه منه !

هذا جانت من جوانب إحياء التراث قديماً ، أما الآخر فيتمثل في شرح ذلك التراث ، ونحن نجد أن حماسة أبي تمام المتوفي سنة ٢٣١ تناولها بالشرح أكثر من أديب ، فشرحها أبو بكر الصولي ، والمرزوقي ، وإبن جنى، والآمدي ، والتبريزي، وأبو هلال العسكري، وإبن سيده، والشنتمري ، وغيرهم ممن أحصى عددهم صاحب كشف الظنون ، واحداً وعشرين شارحاً. وذكروا أن أول شارح لها هو أبو رياش أحمد بن إبراهيم الشيباني المتوفي سنة ٣٣٩.

وكتاب سيبويه المتوفي سنة ١٨٠ شرحه أو قام بخدمته أكثر من ٥٥ عالماً: منهم السيرافي، والرماني، والزمخشري وابن الحاجب ، والشلوبين، وابن الباذش.

ومقامات الحريري أبي محمد القاسم بن علي (٤٤٦ - ٥١٦) تولى شرحها كثيرون، منهم صدر الأفاضل قاسم بن حسين الخوارزمي (٦١٧)، وناصر بن عبد السيد المطرزي (٦١٠)، وأبو البقاء العكبري (٦١٦)، وأحمد بن عبد المؤمن الشريشي (٦١٩) وله شروح ثلاثة على المقامات: كبير، وأوسط، وصغير.

وكتاب «إحياء علوم الدين» لأبي حامد الغزالي (٥٠٥) شرحه الزبيدي صاحب تاج العروس (١٢٠٥)، وطبع هذا الشرح بفاس سنة ١٣٠٢ في ١٣ جزءاً، ثم في الميمنية سنة ١٣١١ هـ في ١٠ أجزاء. وقام أخوه أحمد بن محمد الغزالي باختصاره. واختصره كذلك أبو العباس الموصلي (٦٢٢) اختصارين، كما اختصره السيوطي (٩١١). وآخر اختصار له إلى اليوم ما نشره عبد السلام هارون باسم «تهذيب إحياء علوم الدين».

إحياء التراث في العصور الحديثة:

أما إحياء التراث في هذه العهود الحديثة فقد لبس

ثوباً جديداً يمتاز بالنشاط السريع الذي يتمثل في إنتاج المطبعة الحديثة ؛ فهي كانت عاملاً فعالاً في نشر التراث الفكري على نطاق واسع وعلى صور شتى، ودرجات مختلفة من الصحة والتوثيق ، ومراحل متدرجة من الدقة والعناية حتى وصلت إلى ما يشبه القمة في عصرنا الحاضر.

وإذا تحدثنا عن المطبعة رجع بنا التاريخ إلى سنة ١٤٥٠ التي طبعت فيها التوراة ، بعد أن ابتدع جوتنبرج الألماني «المطبعة».

أما الطباعة العربية فكان مهدها الأول في إيطاليا في أوائل القرن السادس عشر، إذ ظهرت أول مطبعة عربية في مدينة فانو بأمر البابا يوليوس الثاني، وافتتحها ليون العاشر سنة (١٥١٤) ومن أوائل ما طبع فيها سفر الزبور (١٥١٦). ثم مطبعة البندقية وفيها طبع القرآن الكريم للمرة الأولى، وبعد أن تم طبعه صودرت نسخه وقضى عليها بدافع تعصبي، ثم طبعت أول ترجمة إيطالية للقرآن سنة ١٥٤٧.

وفي مطبعة روما (١٥٩٣) طبع «قانون ابن سينا» في

الطب، ومعه علم المنطق، وعلم الطبيعي، وكتاب النجاة له أيضاً، وكان صدور هذا الكتاب بداية عهد جديد في دراسة الطب

ثم تعددت المطابع العربية في أوربا وطبع فيها مئات من الكتب العربية والشرقية؛ أكثرها في لندن وباريس، وليبزج، وليدن، وغوتنجن، وروما، وفيينا، وبرلين، وبطرسبرج.

وكانت الآستانة أسبق مدن الشرق إلى الطباعة، وتم طبع التوراة العربية فيها ترجمة سعيد الفيومي في سنة ١٥٥١ لكن هذه الترجمة العربية طبعت بحروف عبرية، مبالغة في التعصب.

وفي القرن الثامن عشر ظهرت الطباعة بالحروف العربية في كل من الآستانة وسورية ولبنان، فطبع الإنجيل وطائفة من الكتب المسيحية في سوريا بدءاً من سنة ١٧٠٢.

أما في تركيا فكان القوم في حال تردد في طبع كتب الحكمة واللغة والتاريخ والطب والفلك التي لم يجرؤ أحد على طبعها إلا بعد صدور فتوى من شيخ

الإسلام عبد الله أفندي سنة ١٧١٦ بجواز ذلك، فيما عدا الكتب الدينية التي استصدرت فتوى أخرى بعدها لإجازة طبعها. وتعددت المطابع في الأستانـة ، فكان أشهرها مطبعة الجوائب لأحمد فارس الشدياق ، ونشر فيها إلى جانب صحيفـة الجوائب طـائفة صـالحة من الكتب العربية.

وتلتهما في ذلك لبنان . وكان من أقدم مطابعهـا مطبعة قزحيا ، بدأت بالحروف السريانية ، ثم انتقلت إلى العربية ، وكان اهتمامهـا بالمطبوعـات الدينيـة ، ومطبعة الشوير التي أسسها عبد الله زاخر، وكان معظم منشوراتها من الكتب الدينية كذلك، ثم ظهرت مطبعة القديس جاور جيوس للروم الأرثوذكس في بيروت سنة ١٧٥٣ وطبعت كثيـراً من كتب الأدب والتاريـخ،ثم المطبعة الأمريكية للمبعوثين الأمريكان أنشئت في مالطة سنة ١٨٢٢ ثم نقلت إلى بيروت سنة ١٨٣٤ وطبعت كثيـراً من الكتب المدرسيـة وطائفـة من كتب الأدب والتاريخ ودواوين الشعر. ثم المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين سنة ١٨٥٤ فكان لها فضل عظيم في نشر كثير من أمهات التراث العربي، منها نوادر أبي زيـد

الأنصاري سنة ١٨٩٤ وتهذيب الألفاظ للتبريزي سنة ١٨٩٥. ثم المطبعة السورية لخليل الخوري صاحب حديقة الأخبار أنشأها سنة ١٨٥٧. ثم مطبعة المعارف للبستاني (بطرس بن بولس) سنة ١٨٦٧ وهي التي قامت بنشر دائرة المعارف له ثم لولده سليم. وكذا محيط المحيط، وقطر المحيط.

أما في (مصر) فإن أقدم مطبعة ظهرت فيها هي مطبعة الحملة الفرنسية التي أحضرها نابليون معه سنة ١٧٩٨ لطبع المنشورات السياسية والأوامر باللغة العربية، وكانت تعمل وهي على السفينة في عرض البحر، وحينما اقتحمت هذه الحملة ثغر الإسكندرية قام رجالها بتوزيع المنشورات التي أعدوها في البحر، وأطلق على هذه المطبعة اسم «المطبعة الأهلية». ثم نقلت إلى القاهرة ، واستمرت في عملها إلى سنة ١٨٠١ حيث تم انسحاب الفرنسيين ؛ ومن أظهر إنتاجها كتاب في الهجاء باللغات العربية والتركية والفارسية ، وكانت حروفها عربية وإفرنجية ويونانية.

ومرت فترة من الزمن زهاء عشرين سنة وليس في مصر طباعة ولا مطبعة ، حتى استقر الأمر لمحمد علي ،

فأنشأ مطبعة على أنقاض المطبعة الأهلية الفرنسية، وسميت بالمطبعة الأهلية أيضاً، وذلك في سنة ١٨٢١، ثم نقلت إلى بولاق فعرفت بمطبعة بولاق، وعهد بإدارتها إلى نقولا مسابكي السوري. وكان هذا قد بدأ دربته الفنية على الطباعة في روما في نحو أربع سنوات لصنع أمهات الحروف وسبكها . وكان محررو مطبعة بولاق من الطلبة الأزهريين الذين دربوا لذلك تدريباً خاصاً استغرق نحو ست سنوات.

ومن ألمع نظار بولاق حسين حسني (باشا) الذي بدأ أمره مصححاً وكاتباً بالتركية في الوقائع المصرية سنة ١٨٥١ ثم عمل في المطبعة إلى أن ولى نظارتها سنة ١٨٨٠. وهو أول من أنشأ مصنعاً للورق في مصر، وكان معظمه قبل ذلك يستورد من إيطاليا .

وقد استمرت مطبعة بولاق في عملها أكثر من ٩٠ سنة لم توكد في أثنائها إلا بضع سنوات في الفترة التي انقضت بين عهد محمد علي وإسماعيل، وكان نشاطها ظاهراً في طبع مئات من الكتب العربية في الطب، والرياضة، والطبيعة، والفنون الحربية ، والتاريخ، والأدب، والشعر، والتفسير، والحديث، وغيرها. وهذه

المطبعة هي نواة المطبعة التي عرفت منذ عهد قديم باسم المطبعة الأميرية. وظهرت إلى جانبها مطبعتان حكوميتان في طرة ، وفي أبي زعبل.

أما المطابع غير الأميرية فلم تظهر إلا بعد مضى نحو أربعين سنة على إنشاء مطبعة بولاق. وأولها المطبعة الأهلية القبطية التي عرفت فيما بعد بمطبعة الوطن، أنشئت سنة ١٨٦٠ بعد أن تدرب عمالها في مطبعة بولاق بإذن من سعيد باشا.

ومن أقدم المطابع الأهلية كذلك مطبعة وادي النيل ١٨٦٦ طبعت فيها صحيفة وادي النيل التي أنشأها صاحبها أبو السعود أفندي، ومطبعة جمعية المعارف التي أسسها محمد عارف باشا أحد أعضاء مجلس الأحكام بمصر سنة ١٨٦٨.

وقد لقيت هذه الجمعية العلمية إقبالاً كبيراً واستجابة سريعة من المثقفين وغيرهم، وكان لأعضائها ميزة في أن يحصلوا على الكتب بثمن أقل مما يطلب من غيرهم. وقد نشرت الجمعية طائفة من الكتب القيمة في اللغة والتاريخ والأدب، منها تاج العروس للزَّبيدي ،

وكتاب ألف باء للبلوي، ومنها كتاب «أسد الغابة في معرفة الصحابة» لأبن الأثير. و«الفتح الوهبي على تاريخ أبي نصر العتبي»، وهو من أعجب كتب التاريخ؛ إذ هو شرح لكتاب تاريخي ألفه أبو نصر العتبي ليسرد فيه وقائع يمين الدولة محمود بن سبكتكين (٣٦٠ - ٤٢١هـ) بأسلوب أدبي فني، وسماه «اليميني» نسبة إلى يمين الدولة هذا. وقد تتابع عليه شراح كثيرون كان أبرزهم وأشهرهم هذا المؤلف، وهو أحمد بن علي المنيني (١٠٨٩ - ١١٧٢) الذي سمى شرحه بالفتح الوهبي.

ومنها تاريخ ابن الوردي مذيلاً بالحوادث التي جرت بعد وفاة المؤلف، أي من سنة ٥٧٠ إلى سنة طبع الكتاب ١٢٨٥ هـ

ومن الجمعيات التي قامت على إحياء التراث في ذلك العهد: شركة طبع الكتب العربية، وقد ظهرت بعد تأسيس جمعية المعارف بثلاثين سنة: أي سنة ١٨٩٨. وقد طبعت طائفة صالحة من كتب الفقه والتاريخ: منها: الموجز في فقه الشافعي، وفتوح البلدان للبلاذري، ومن الطريف حقاً أن نشهد قيام جمعية

خيرية خاصة «من فضلاء المصريين وسراتهم ذوي الهمم العلية» لنشر كتاب معين ، هو كتاب المخصص لابن سيده، وذلك في سنة ١٩٠٢ وكان من أعضائها الشيخ محمد عبده، وحسن عاصم، وعبد الخالق ثروت، ومحمد النجّاري، ووكلوا تصحيح الكتاب إلى الإمام محمد بن محمود التركزي الشنقيطي بمعاونة الشيخ عبد الغني محمود أحد علماء الأزهر.

ولقد كانت فكرة إحياء التراث والنشاط فيه فكرة قومية قبل أن تكون فكرة علمية ، فإن طغيان الثقافة الأوربية والنفوذ التركي وضغطه كان يأخذ بمخنق العرب في بلادهم، فأرادوا أن يخرجوا إلى متنفَّس يحسون فيه بكيانهم المستمد من كيان أسلافهم في الوقت الذي ألفوا فيه الغرباء من الأوربيين يتسابقون وينبشون كنوز الثقافة العربية، فانطلقوا في هذه السبيل ينشرون ويحيون ؛ إذ كانوا يرون أنهم أحق بهذا العمل النبيل وأجدر.

جهود المستشرقين :

إن الجهد العلمي الذي بذله المستشرقون في إحياء التراث العربي جهد لا يستطاع إنكاره؛ فهم كانوا أساتذة الجيل الحاضر في الطريقة العلمية التي جروا عليها. ولا ريب أن تحقيق النصوص وتوثيقها فن عربي أصيل، يتجلى في معالجة أسلافنا الأقدمين لرواية كتب الحديث واللغة والشعر والأدب والتاريخ في دقة وأمانة ونظام بارع ، ولكن المستشرقين تبَّنوا إحياء هذا الفن في هذه العصور القريببة ، ونبغ من بينهم علماء أمناء قاموا بنشر عيون ثمينة من التراث العربي في أمانة علمية دقيقة اقتبسوها من أسلافنا مقرونة بعناية خاصة بالفهارس الفنية، وهذا أيضاً كان شأن جمهور أسلافنا؛ فكتب الرجال عندنا تنال ترتيباً فهرسيًّا ممتازاً مقروناً بالإحالات الذكية؛ كما أن مقابلة المخطوطات ومقارنتها ميزة عربية سباقة عرفها آباؤنا الأولون.

وإذا أحببت أن أنوه بالقمة العليا من نوابغ هؤلاء المستشرقين فلن أستطيع إغفال كل من:

١ - وستنفلد الألماني Wustenfeld (١٨٠٨ - ١٨٩٩) الذي ألف وحقق نحو مائتي كتاب بين صغير وكبير: منها كتاب سيرة ابن هشام، ومعجم ما استعجم للبكري، وقد نشره مكتوباً بخط يده مطبوعاً بمطبعة الحجر (ليتوجراف).

٢ - بيفان الهولندي: Bevan (١٨٥٩ - ١٩٣٤) ناشر نقائض جرير والفرزدق مذيلة بالفهارس المبتكرة والتعليقات، ومنها تفسيره وفهرسته للألفاظ التي لم تذكر في المعاجم المتداولة. وهو مما يذكر له بالتقدير.

٣ - تشارلس لايل الإنجليزي: Charles Lyall (١٨٤٥ - ١٩٢٠) محقق شرح المفضليات لابن الأنباري، مع ترجمة شعرية لها باللغة الإنجليزية. ومن عجب أنه استطاع أن ينظم هذه الأساليب والمعاني الجاهلية في ثوب شعري إنجليزي قشيب.

٤ - رودلف جاير الألماني المقعد: Rudolf Geyer (١٨٦١ - ١٩٢٩) محقق ديوان الأعشى الذي أسماه «الصبح المنير في شعر أبي بصير». وتظهر عنايته الفائقة في تخريج هذه الأشعار من ٥٦٩ مرجعاً، مع مقابلات كاملة لرواية النصوص بيتاً بيتاً وكلمة كلمة.

٥ ـ وليم رايت الإنجليزي : W. Wright (١٨٣٠ ـ ١٨٨٩) وهو تلميذ المستشرق الكبير دوزي، وقد تولى نشر الكامل للمبرد لأول مرة في حذق وإتقان، وقد نشر الكتاب وهو في سن الرابعة والثلاثين، وذلك قبل أن تظهر الطبعات المصرية بنحو ربع قرن، وتمتاز طبعته بالفهارس الدقيقة الوافية.

٦ ـ هرتويغ درنبرغ الفرنسي Hartwis Deren-bours (١٨٤٤ ـ ١٩٠٨) الذي نشر كتاب سيبويه في سنة ١٨٨١ : أي قبل أن تظهر طبعة بولاق بعشرين سنة.

٧ ـ غوستاف يان الألماني: Gustave Jan (١٨٣٧ ـ ١٩١٧) الذي ترجم كتاب سيبويه كاملاً إلى اللغة الألمانية، مع إضافات وتعليقات بالعربية مقتبسة من شروح السيرافي والشنتمري، ومن خزانة الأدب وغيرها.

وقد ظهرت تلك الترجمة في خمسة مجلدات من سنة ١٨٩٥ إلى سنة ١٩٠٠ .

وغوستاف يان هذا هو الذي أخرج شرح المفصل

لابن يعيش مقابلاً بمخطوطات ليبزج وأكسفورد والآستان في سنة ١٨٨٢، وذلك قبل أن تظهر الطبعة المصرية لمحمد منير الدمشقي بنحو ٥٠ سنة أي نصف قرن.

جهود عربية مبكرة:

من الجهود العربية المبكرة في إحياء التراث العربي، جهود مطبعة بولاق، ودار الكتب المصرية، والمكتبة الميمنية، ودار الكتب العربية الكبرى، ومكتبة مصطفى الحلبي، ودار إحياء الكتب العربية، ومكتبة الخانجي، والمكتبة السلفية، ولجنة التأليف والترجمة والنشر، ودار المعارف، وجامعة القاهرة، والمجمع العلمي العربي بدمشق، والمجمع اللغوي بالقاهرة، والمجمع العلمي العراقي، ومكتبة المثنى ببغداد، والمعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة، والمعهد العلمي الفرنسي بدمشق، ودائرة المطبوعات والنشر بالكويت. والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف، وإدارة التأليف والترجمة والنشر، والمجلس الأعلى للفنون والآداب،

والمؤسسة العربية الحديثة، ودار الثقافة ببيروت، ودار المعارف للتأليف والترجمة والنشر بالعراق. وسأخص بعض هذه المؤسسات بالذكر:

جهود مطبعة بولاق:

أما جهود مطبعة بولاق فتبدو واضحة في نشر أمهات كتب التراث: أمثال صحيح مسلم، وصحيح البخاري، وخزانة الأدب، والأغاني، ولسان العرب، وصحاح الجوهري، والقاموس المحيط، وكتاب سيبويه، والمخصص لابن سيده، وشرح الحماسة للتبريزي، وشرح المقامات للشريشي، وقلائد العقيان للفتح بن خاقان، وصبح الأعشي، وكثير غيرها من أمهات الكتب.

ويحفظ لنا التاريخ أسماء شيوخ عظام كانوا يقومون - في أمانة - بإخراج تلك الكتب على قدر طاقتهم العلمية ومنهجهم الساذج في الإخراج، منهم: الشيخ نصر الهوريني، والشيخ قطة العدوي، والشيخ محمد الحسيني، والشيخ طه محمود، والشيخ محمد عبد الرسول وغيرهم.

دار الكتب المصرية:

وأما دار الكتب المصرية فإليها يرجع الفضل الأخير في القدوة المثالية للمحققين المعاصرين، ولعل أول نافخ في بوق إحياء التراث العربي على النهج الحديث في مصر هو المغفور له أحمد زكي باشا الذي قام بتحقيق كتابي أنساب الخيل لابن الكلبي، والأصنام لابي الكلبي أيضاً. وقد طبعا في المطبعة الأميرية سنة ١٩١٤ باسم لجنة إحياء الآداب العربية التي عرفت فيما بعد باسم القسم الأدبي. ولعل هذين الكتابين مع كتاب «التاج» للجاحظ الذي حققه أيضاً ـ من أوائل ا لكتب التي كتب في صدورها كلمة «بتحقيق»؛ كما أن تلك الكتب قد حظيت بإخراجها على أحدث المناهج العلمية للتحقيق مع استعمال المكملات الحديثة: من تقديم النص إلى القراء، ومن إلحاق الفهارس التحليلية. ويضاف إلى ذلك أنه أول من أشاع إدخال علامات الترقيم الحديثة في المطبوعات العربية، وألف في ذلك كتاباً سماه «الترقيم في اللغة العربية» طبع في بولاق في زمن مبكر جداً هو سنة ١٩١٣ وإن كان يؤخذ عليه أنه كان يبالغ في استعمال تلك العلامات، ولا سيما في

الشعر الذي كان يختتم كل بيت مستقل فيه بنقطة يضعها في نهايته.

ومن أوائل مطبوعات دار الكتب صبح الأعشي للقلقشندي في ١٤ مجلداً سنة ١٩٢٠ بالمطبعة الأميرية باسم دار الكتب. وتعد هذه الطبعة هي الطبعة الثانية؛ إذ طبع قبل ذلك. في مطبعة بولاق سنة ١٩٠٥.

ثم نهاية الأرب الذي بدأت طبعه محققاً سنة ١٩٢٣ بمطبعتها التي أنشأتها.

وكانت الصيحة المدوية لدار الكتب المصرية تبنيها لطبع كتاب الأغاني لأبي الفرج بإشراف القسم الأدبي الذي كان يرأسه المغفور له أحمد زكي العدوي بناء على اقتراح السيد علي راتب الذي تكفل بنفقات طبعه، وصدر الجزء الأول منه في سنة ١٩٢٧ وحظى بعناية كاملة في إعداد الأصول وصنع الفهارس التحليلية في نهاية كل جزء من أجزائه.

واستمرت دار الكتب في أداء مهمتها تنشر موسوعات التراث: ومنها النجوم الزاهرة لابن تغري بردى، وتفسير القرطبي.

ثم ضعفت العناية بهذا القسم إلى أن تولى الأستاذ أمين مرسي قنديل إدارة دار الكتب، فقام بمجهود ضخم جداً لمسته بنفسي؛ إذ حاول أن ينقذ هذا القسم من الفناء، فدبت الحركة فيه، وحاول أن يخلص كتاب الأغاني من ورطته التاريخية، فعهد إلى بعض العلماء بإتمام ما بقي من أجزائه، ولكن الظروف لم تسعفه بتنفيذ فكرته النشيطة، وكاد القسم الأدبي في عهده يرتقي القيمة في نشر موسوعات التراث، ولكن أطاحت بذلك فكرة خاطئة مغرضة تزعم أن ليس من وظائف دور الكتب في أوربا أن تضطلع بنشر التراث، وكأننا في جميع خطواتنا إنما نترسم أوربا في حقها وفي باطلها!

وفي أسف بالغ ودع المثقفون هذا القسم الأدبي الذي قضى على نشاطه بعد عهد أمين مرسي قنديل، أطال الله في حياته.

وبعد إلغاء هذا القسم جريمة لا تغتفر في حق إحياء التراث العربي، ويجب كل الوجوب أن يبعث ثانياً ليؤدي رسالته التي لا يستطيع أداءها غيره نظراً إلى وفرة المراجع المخطوطة والمطبوعة وإمكان تجنيد طائفة من

العلماء، وإعداد جيل يتلقى فن التحقيق بوجه عملي في رحاب دار الكتب.

جمعية المستشرقين الألمانية:

ويرجع تاريخها الأول إلى سنة **١٨٤٥** حيث أسست في ألمانيا في مدينة هالة، ثم أنشأت فروعاً لها في الشرق، أهمها فرع الآستانة **١٩١٨** تولى الإشراف عليه وتأسيس مكتبته المستشرق هلموت ريتر، وقام مع غيره بنشر طائفة من كتب التراث الهامة: منها مقالات الإسلاميين للأشعري، والوافي بالوفيات للصفدي بتحقيق ريتر ثم ديدرنج، والمحتسب لابن جني بتحقيق برجستراسر.

ثم فرع القاهرة الذي سمى بمعهد الآثار، وكان يديره رويمر الذي حقق الجزء التاسع من كنز الدرر وجامع الغرر، للداودي.

ثم معهد الدراسات الشرقية في بيروت سنة ١٩٦٠، ومن جهوده إعادة نشر الأجزاء الأولى من الوافي بالوفيات للصفدي، وطبقات المعتزلة بتحقيق

السيدة فليتسردي فالد من معهد إستانبول، وكتاب ا٠حاة للمرزباني بتحقيق سلايم من جامعة فرانكفورت.

مكتبة الخانجي:

وممن لهم اليد الطولى في إذاعة التراث العربي السيد محمد أمين الخانجي، وفيه يقول أحد أدبائنا الأعلام[1]: «وقل أن تجد عالماً أو أديباً في زمنه لم يكن لهذا الرجل النحيف الضئيل فضل عليه. يذكره الذاكر محسناً في ذكره، وينساه الناسي مسيئاً في إساءته، ذلك هو أمين الخانجي الذي أحب الكتاب العربي كأنه تراث أبيه وأمه».

وقد رأيت هذا الرجل في صباي، وعرفت فيه الإخلاص للعلم وحده؛ إذ لم يكن المال عنده إلا في المرتبة الثانية، كما لمست فيه الإخلاص في نشر التراث العربي لا يكاد يعترف بغيره.

---

(١) الأستاذ محمود شاكر في مقدمة طبقات فحول الشعراء لابن سلام.

وقد قدَّم إلى قارىء العربية مجموعة ضخمة من كتب التراث، يكفي أن نذكر منها: «معجم البلدان» لياقوت مع ذيله «منجم العمران»، وكذا حلية الأولياء لأبي نعيم، وبدائع الصنائع، والإصابة لابن حجر، وتاريخ بغداد، والعقد الفريد، واللزوميات لأبي العلاء، وجواهر الألفاظ لقدامة بن جعفر، وتيسير الوصول إلى جامع الأصول لابن أبي الديبع الشيباني بتحقيق الشيخ محمد هارون.

ومن المعروف عنه أنه رحل إلى العراق وغيرها من البلدان العربية، وعاد من رحلته سنة **١٩٢٥** جامعاً لنوادر المخطوطات التي لا يقدرها الثمن، وكان له ذوق مبكر في منهج نشر الكتب وترقيمها، واختيار الصالح منها للنشر.

وبعد وفاته في سنة **١٩٢٨** قام مقامه ولده محمد نجيب الخانجي وورث عنه الرغبة الملحة في أحياء التراث عن صدق لمسته فيه من طول صحبتي له، ومن منشوراته مما حققه كاتب هذه السطور: البيان والتبيين للجاحظ، والاشتقاق لابن دريد، ورسائل الجاحظ، ونوادر المخطوطات في مجلدين، وهي خمسة وعشرون

كتاباً ورسالة. ومما حققه غيري: صون المنطق، وطبقات الصوفية للسلمى، كما أسهم في نشر الصلة، وتكملة الصلة، وصلة الصلة وغيرها.

المكتبة السلفية:

أنشأها الأستاذ محب الدين الخطيب وعبد الفتاح قتلان سنة ١٩٢٠، ثم استقل بها محب الدين الخطيب، ونشر كثيراً من كتب السلف: منها أدب الكاتب لابن قتيبة سنة ١٩٢٧ وقد شاركته في إخراجه وتتلمذت عليه في ذلك الوقت حينما كنت طالباً في تجهيزية دار العلوم، فهو كان أشتاذي الأول في ذلك.

ومما نشره لأول مرة كتاب الميسر والقداح لابن قتيبة

ومما نشره لأول مرة كتاب الميسر والقداح لابن قتيبة، سنة ١٣٤٢، وصنع له فهارس فنية في ذلك الوقت المبكر.

ونشر كذلك كتاب الملاحن لابن دزيد، والثلث الأول من كتاب خزانة الأدب. وظهر هذا الثلث في

أربعة أجزاء بتحقيقي وإضافة تعليقات لأحمد تيمور باشا وعبد العزيز الميمني الراجكوتي، وكنت لا أزال إذ ذاك طالباً في دار العلوم.

لجنة التأليف والترجمة والنشر:

وكانت نواتها طائفة من طلبة مدرسة المعلمين العليا ومدرسة الحقوق، يقول فيهم الدكتور أحمد أمين (في كتاب لجنة التأليف والترجمة والنشر في عشرين عاماً): طائفة من الشباب تمتلىء نفوسهم غيره على العالم الإسلامي، ويطيلون التفكير في وسائل إصلاحه والنهوض به، ألف بين أفرادها الشعور بالألم من موقف الشرق وخموله، والإيمان بوجوب العلم على تنبيهه، والأخذ بيده ورفع مستواه».

وكان منهم: أمين مرسي قنديل، وعبد الحميد العبادي، ومحمد بدران، ومحمد صبري أبو علم، وتولى رياستها الأستاذ أحمد أمين، فظهر نشاطها بارزاً في إحياء التراث، ونشرت السلوك للمقريزي بتحقيق الدكتور زيادة سنة ١٩٣٤، ثم المختار من شعر بشار

للخالديين، وغيره من نفائس التراث كالعقد الفريد، ومعجم ما استعجم للبكري بتحقيق مصطفى السقا، وشرح الحماسة للمرزوقي بتحقيق عبد السلام هارون.

جامعة القاهرة:

ومن أقدم منشوراتها «الذخيرة» في علم الطب لثابت بن قرة تحقيق جورجي صبحي سنة ١٩٢٨، ومنتخب جامع المفردات للغافقي تحقيق ماكس مايرهوف وجورجي صبحي سنة ١٩٣٢، ونقد النثر لقدامة بن جعفر تحقيق طه حسين وعبد الحميد العبادي سنة ١٩٣٣، ورسائل فلسفية للرازي تحقيق بول كراوس سنة ١٩٣٨، وبعض أجزاء من الذخيرة لابن بسام تحقيق عبده عزام، وعبد العزيز الأهواني، وخليل عساكر، وعبد القادر القط سنة ١٩٣٩-١٩٤٥، وكتاب الأصل للإمام محمد بتحقيق شفيق شحاتة سنة ١٩٥٤، والسير الكبير له تحقيق محمد أبو زهرة ومصطفى زيد سنة ١٩٥٨.

جهود الكردي، والساسي، ومحمد منير، والقدسي:

أما الكردي فهو فرج الله زكي الكردي، وقد أنشأ مطبعة سماها مطبعة كردستان العلمية بدأت نشاطها نحو سنة ١٩١١، ونشر فيها طائفة من كتب التراث على منهج علمي مقارب: منها كتاب تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة.

وأما الساسي فهو محمد ساسي المغربي، وكان تاجراً بالفحامين، وقد تولى الإنفاق على طبع موسوعات هامة: منها كتاب الأغاني لأبي الفرج الذي أظهره مذيلاً بالفهارس ومكملاً بالجزء الحادي والعشرين، ولا تزال طبعته هي الطبعة الأكثر تداولاً.

ومحمد منير الدمشقي كان له فضل لا ينكر في نشر موسوعات التراث: منها عمدة القارى شرح صحيح البخاري للعيني، وشرح المفصل لابن يعيش، والكامل في التاريخ لابن الأثير وغير ذلك.

ومن الناشرين المكافحين رجل لا يزال يوالي نشاطه في إحياء التراث، هو حسام الدين القدسي ناشر تاريخ

الإسلام للذهبي، ولو وجد عوناً من أولى الأمر لأتم هذه المهمة الجليلة التي بدأها منذ عهد قديم، ولكن الرجل مغمور مع أنه جدير بأن يلقى من التشجيع ما يمكنه من أداء رسالته. وقد حدثني انه ينسخ الكتاب بنفسه ، ثم يجمع حروفه بيده، ثم يصححه ، ثم يدفع به إلى المطبعة. ويكفي أن نذكر من جهوده نشر شذرات الذهب لابن العماد، والضوء اللامع للسخاوي، ومجمع الزوائد للهيثمي، وديوان المعاني للعسكري، واللباب في تحرير الأنساب، وذيول تذكرة الحفاظ.

دار المعارف:

وقد بدأت نشاطها في إحياء التراث العربي سنة ١٩٤٢ حين فكرت أنا وأخي العلامة المغفور له الشيخ أحمد شاكر في نشر مجموعات من عيون الشعر سميناها «ديوان العرب». وبدأنا في نشر «المفضليات» ثم «الأصمعيات».

ثم اقترحنا على الدار أن تخصص نشراً منظماً لعيون

التراث العربي، فسرعان ما استجابت لهذا الاقتراح وقامت بتنظيم تنفيذه. وأذكر أن الدار قد أعلنت في ذلك الوقت عن مسابقة لتسمية هذا المشروع، ففاز به عنوان «ذخائر العرب» يشترك في تحقيقها علماء الشرق والغرب، وكان باكورة هذه المجموعة كتاب «مجالس ثعلب» في مجلدين بتحقيق عبد السلام هارون، و«إصلاح ثعلب» في مجلدين بتحقيق عبد السلام هارون، و«إصلاح المنطق لابن السكيت» بتحقيقه مع الشيخ أحمد شاكر، والطبعة الأولى من «جمرة أنساب العرب لابن حزم» تحقيق أ. ليفي بروفنسال.

وتوالي بعد ذلك نشر طائفة كبيرة من تلك الذخائر بلغت الآن ٥٤ كتاباً: منها ما هو في أكثر من عشرة مجلدات. ومنها ما أعيد طبعه أكثر من خمس مرات.

ولا تزال تلك المجموعة في تزايد ونجاح مطرد، نرجو له المضي قدماً في نشاطه واتساعه.

* * *

إن الحديث عن التراث وإحيائه حديث طويل، ولكن ما قصد منها بهذا الحديث أولاً وأخيراً هو

استحثاث العزائم لمواصلة السير في هذا الطريق النبيل وفاءً لماضينا، ودعماً لمستقبلنا الثقافي المرتقب.

هـذا الكتـاب

يتناول التراث العربي كل ما كتب باللغة العربية معبرا عن روحها وتياراتها وآدابها المختلفة.

وهذا بحث في تاريخ التراث يلقي الأضواء على قيمته وأصالته وعبقرية التأليف العربي.. كما يبرز جهود الذين أسهموا في إحياء التراث العربي مستعرضا ما بذله المستشرقون في هذا المجال... حتى أصبح التراث علامة على الحضارة العربية.. والوجود العربي على السواء.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الفهرس

تنويه: هذا الفهرس ليس من أصل الكتاب ؛ وإنما أعددته تسهيلاً للوصول الى المواضيع .

م. سرمد حاتم شكر السامرائي



المركز العربي
للثقافة والعلوم

طباعة . نشر . توزيع